معالم جديدة للمنهج المقارن بين اللغات السامية
جوانب انثروبولوجيّة ونفسية واجتماعية

للدكتور سمير ستيتية
جامعة اليرموك

مقدمة:

أدى اكتشاف اللغة السنسكريتية في القرن الثامن عشر الميلادي إلى ظهور علم اللغة التاريخي، وما ارتبط به من مقارنات لغوية. فقد قام فريق من العلماء المتخصصين بدراسات مقارنة بين اللغات الهندو أوروبية، وتوصلوا إلى نتائج باهرة حول العلاقات التاريخية بين هذه اللغات، وكيفية تطورها، وتفرع بعضها عن بعض. بل إنهم استطاعوا أن يبنوا تصوراً واضحاً للأصول التي تفرّع عنها عدد من اللغات، وذلك بإعادة بناء هذه الأصول reconstruction من فروعها المستعملة.

وقد أفاد المستشرقون من هذه الدراسات في مقارناتهم بين اللغات السامية، وقدموا لهذا الميدان الكثير من الأبحاث والدراسات التي لم يُسبَقوا إليها. وقد كان العمل في ميدان المقارنات بين الساميات عملاً استشراقياً إلى حد كبير، في بدايات هذا العمل بخاصة، حتى إن أحد العلماء المعاصرين، يرى أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يقف علم المقارنات بين اللغات السامية على قدم وساق في البلاد العربية[1] مشيراً بذلك إلى أن المستشرقين هم أصحاب قصب السبق والقدر المعلّى في هذا المجال، حتى أيامنا الحاضرة.

---

(١) رمضان عبدالتواب، مقدمة ترجمته لفقه اللغات السامية ص٧.

ولا أنكر أن بعض العلماء العرب الأقدمين قد فطنوا إلى العلاقة بين اللغة العربية واللغات السامية. فلقد أشار الخليل بن أحمد إلى العلاقة بين العربية والكنعانية[1] وكذلك أشار ابن حزم إلى أن العربية والسريانية فرعان لأصل واحد، وأنهما تفرعتا مع الزمن، من هذا الأصل[2] بل إن بعض علماء العرب قد أفرد كتباً مستقلة لرصد ما في العربية من كلمات دخيلة، سامية كانت أم غير سامية، وذلك كما فعل السيوطي في كتابه "المذهب" والجواليقي في كتابه "المعرب" ولكن ذلك، على أهميته، لا يتفق مع المنهج الجديد في المقارنات بين الساميات.

المنهج المتبع

درج المستشرقون في مقارناتهم بين اللغات السامية على الحديث عن تاريخ اللغات السامية، وكيف تفرّعت عن السامية الأم، حتى أصبحت لغات مستقلة. ولقد اعتمدوا في ذلك على مصادر تاريخية ودينية، كما اعتمدوا على النقوش والآثار التي وجدوها في مناطق مختلفة من الشرق الأوسط.

واهتم الباحثون في هذا الميدان، وجلّهم من المستشرقين، بالمقارنة بين فونيمات اللغات السامية، بالمقارنة بين الظاهرات والتغييرات الصوتية، في هذه اللغات، من مماثلة assimilation ومخالفة dissimilation وقلب مكاني metathesis وحذف deletion وزيادة insertion وإمالة، وغيرها من الظاهرات الفونولوجية.

واهتموا كذلك بالمقارنة بين الأنظمة الصرفية، في لغتين أو أكثر من هذه اللغات، وذلك بإبراز السوابق Prefixes واللواحق sufixes والدواخل infixes عند تصريف الأفعال مثلاً، وتغير هذه اللواصق أو بعضها، تبعاً لتغيُّر زمن الفعل

---

(١) الخليل بن أحمد، **العين ج١** ص٢٣٢.

(٢) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام** ج١ ص٣٠.

(ماض، مضارع، أمر) والعدد (مفرد، مثنى، جمع) والجنس (مذكر ومؤنث). كما اهتموا بسائر الموضوعات التقليدية في الصرف، فجعلوها مدار مقارناتهم بين اللغات السامية.

ولست أنكر أنهم أولوا المقارنة بين أنظمة الجمل في اللغات السامية عناية خاصة وذلك كما فعل بروكلمان الذي خصص جزءاً من كتابه semitische sprachwissenschaft لدراسة نظام الجملة في اللغات السامية. لكن هذا المجال من المقارنة، لم يلق اهتماماً كبيراً، بالدرجة نفسها التي لقيتها دراسة المقارنات في الأصوات والصرف بين اللغات السامية.

ومما يلاحظ، أن علماء مقارنة الساميات، يهتمون برصد الظاهرات اللغوية في هذه اللغات، أكثر من اهتمامهم بتفسيرها، بخلاف ما نراه في درس اللغويات المقارن بين اللغات الهندو أوروبية.

إن تفسير الظاهرات اللغوية، في أسرة لغوية واحدة، من أهم وظائف علم اللغة التاريخية. وإن هذا التفسير يتطلب، بداهة، ربطها بجذورها الانثروبولوجية والاجتماعية، وردّها إلى أصولها النفسية والثقافية، فإن "ارتباط اللغة بوظيفتها أو بوظائفها المختلفة في الجماعة اللغوية، يؤثر بالضرورة، في حياة اللغة. فهناك فرق بين أن تكون اللغة لغة جماعة محدودة، أو أن تكون اللغة الرسمية في دولة عظمى، أو أن تكون لغة حضارة دولية[1] ولهذا، لا يكفي رصد الظاهرات اللغوية، في المجموعة السامية، دون تفسيرها في ضوء المعطيات المشار إليها أعلاه. ولئن كان أئمة درس المقارنات بين الساميات قد أجادوا بدقة رصدهم الظاهرات اللغوية، فقد تركوا لمن بعدهم مهمة التفسير، وذلك برد الظاهرة إلى أصولها الثقافية والاجتماعية والنفسية.

---

(١) محمود فهمي حجازي. **علم اللغة العربية**، الكويت، ١٩٧٣، ص٤٠.

ومما يلاحظ في ميدان المقارنة بين الساميات، أنه إذا حدث أن فسرت ظاهرة ما، أسقط من الاعتبار بعض العوامل الموضوعية، التي يجدر أن تظل في دائرة الضوء، والتي يمكن أن تحمل بين طياتها حلاً مقبولاً لظاهرة ما، لقد حاول الباحث الأميركي Michale Brame تفسير عدم إدغام اللام في (أل) التعريف بالجيم العربية المعطشة[1] (J) فارتأى أن اللام لا تدغم في الجيم على الرغم من كون الأخير صوتاً صامتاً Consonant واكليلياً Coronal، وعلى الرغم من أن اللام تدغم في الصوامت الاكليلية جميعاً) لأن الجيم المعطشة متطورة عن الجيم السامية (g) التي تنطق كالجيم المصرية. ولما كانت اللام لا تدغم في الجيم الحنكيّة المتأخرة – أي الجيم السامية– فقد عولمت الجيم المَعّطشة معاملتها، أي أنها عوملت باعتبار ما يعامل به أصلها السامي g.

لا يخفى ما في هذا التفسير من تكلف، وكان يغني عنه النظر في جميع ملامح الجيم المعطشة (J) لنخرج بأن هذا الصوت يتميز بملمح ليس موجوداً في جميع الصوامت التي تدغم فيها اللام. هذا الملمح هو أن الجيم المعطشة صوت مركب. وهو إذن ملمح فارق، ليس موجوداً في سائر الأصوات التي تدغم فيها اللام، فلا يدرج معها، ولا يوضع معها في زمرة واحدة. وعليه، يكون حل معادلة إدغام اللام في بعض الصوامت كما يلي:

$$[+\text{def}] \longrightarrow Ci \,/\, \longrightarrow Ci \quad \begin{bmatrix} +\text{cor} \\ -\text{aff.} \end{bmatrix}$$

---

(١) Michale Brame **Arabic Phonology** Nonpulished P.h. D dissertation M. IT 1970 P 220.

وتقرأ المعادلة كما يلي: تدغم لام (أل التعريف) بالصامت الذي يليها بشرطين: أن يكون اكليلياً [cor +]، وألا يكون مركباً [aff −].

تفسير الظاهرات اللغوية:

إن الهدف الأساسي من هذا البحث، هو ربط الظاهرات اللغوية المتنوعة، في اللغات السامية، بالعوامل الانثروبولوجية والاجتماعية والنفسية والثقافية للشعوب السامية. وأقدم فيما يلي بعض الظاهرات الصوتية والصرفية والتركيبية؛ لأبيّن كيف يمكن تفسيرها في ضوء هذه الاعتبارات.

١- في الأصوات:

إن ربطنا لدراسة الأصوات في اللغات السامية بالعوامل الثقافية، يعطينا تفسيراً مقبولاً لعدد من الظاهرات الصوتية في هذه اللغات. فالسبب الثقافي الديني هو الذي يجعل أفراد الطائفة السامرية في مدينة نابلس مثلاً، ينطقون بعض الأصوات الصفيرية فيما بينهم دون صفير، زعماً منهم بأنهم يقلدون موسى عليه السلام في نطق هذه الأصوات. فهم ينطقون الزاي z وكأنها ذال (ð) وينطقون السين والشين (S) S وكأنهما ثاء (θ) وبعض رجال الدين منهم لا ينطقون الأصوات الصفيرية، عن عمد، لا عن عجز ولا قصور.

ويبدو أن الخلاف الديني والاجتماعي بين اليهود والسامريين، قد أدى إلى فروق لغوية كثيرة حتى في الأصوات. ولا غرابة في ذلك؛ فهناك من يعزو ترك اليهود لخطهم القديم. الذي كان يعتمد على الخط الكنعاني، واستعمالهم الخط الجديد المربع، إلى الخلاف بين اليهود والسامرة، إذ إن اليهود كرهوا أن يساويهم السامريون في كل شيء، فتركوا خطهم، وراحوا يكتبون بالخط الجديد[1] ولعل

---

(١) عوني عبدالرؤوف، **قواعد اللغة العربية** ص١٨.

دراسات أعمق لمجتمع السامريين، وأعرافهم الدينية، تؤدي إلى كشف بعض الحقائق اللغوية، مما يفيد في درس الساميات المقارن.

إن ارتباط الساميين بلغاتهم، لا يقل عن ارتباطهم بجنسهم، ونطق بعض جماعاتهم لبعض الأصوات، مختلفاً عن نطق جماعات أخرى لهذه الأصوات، يمكن أن يكون من أهم مكوناتهم النفسية. فهو ليس مجرد اختلاف في النطق وحسب، وإنما هو، إلى ذلك، عامل نفسي اجتماعي. فقد ورد في العهد القديم أن إحدى القبائل في عهد إبراهيم عليه السلام، كانت تنطق السامخ (S̄) وهو صوت بين السين والشين، شيناً، ظاهر هذه الإشارة يتحدث عن اختلاف لهجي، ولكن مضمونها يحمل بين طياته، لوناً من النقد المبطن لهذه القبيلة التي تخلت عن نطق السامخ.

إننا لا نستطيع أن نستوعب مفهوم الفصاحة eloquency عند العرب، إلا إذا عرفنا أبعاده اللغوية والنفسية والاجتماعية، فالبعد اللغوي للفصاحة يتمثل في كون الألفاظ بيّنة ظاهرة، متبادرة إلى الفهم، وفي كون الكلمة متآلفة، يسهل على اللسان نطقها من غير عناء، مع وضوح معناها[1] ويتمثل البعد الاجتماعي للفصاحة في أنها أنموذج ومعيار سلوكي behavioral norm في المجتمع العربي، يمتدح لأجله من يكون فصيحاً، ويذم من يكون غير ذلك. وقد ارتبط نطق معيّن لبعض الأصوات العربية، بمفهوم الفصاحة عند العرب، مما يوحي بأن الأمر لم يعد أمر نطق معين، وإنما اتخذ، إلى جانب ذلك، بعداً اجتماعياً ونفسياً. روي عن عمر بن الخطاب أنه كان من أفصح الناس، لأنه كان ينطق الضاد من الجانب الأيمن، مثلما كان ينطقها من الجانب الأيسر إن شاء.

---

(١) أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة** ص٧.

إن تسمية العربية بأنها لغة الضاد يؤيد ما نحن بصدده، من أن نطق أصوات معينة، بكيفية معينة، اتخذ بعداً اجتماعياً ثقافياً. وإذا أردنا أن نناقش صحة تسمية العربية بهذا الاسم، كان علينا أن ننظر في الوصف التاريخي لهذا الفونيم. يقول سيبويه: ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها[1] ولقد ذهب بعض اللغويين المعاصرين إلى افتراض أن يكون سيبويه، ومن بعده من اللغويين، قد أخطأوا في وصف هذا الفونيم، فظنوه رخواً لا وقفيّاً، أو أن نطق الضاد كان مثل نطق الضاد، على نحو ما هو معروف في بعض اللهجات العامية المعاصرة، في كثير من البلاد العربية[2].

أما الافتراض الأول، وهو أن سيبويه وسائر اللغويين، قد أخطأوا في وصف هذا الفونيم، فيرده أن سيبويه قد قرن بين النظائر، بصورة يزول معها الاحتمال بأنه وقع في الخطأ. فهو يقابل بين الصاد والسين، ويقابل بين الذال والظاء، باعتبار الإطباق وعدمه. ولكنه لا يقابل بين الدال والضاد باعتبار الإطباق، فهو إذن يعي ما يقول.

وهو لذلك غير مخطئ بعدم مقابلة الضاد بالدال، مما يدل على أن الضاد لم يكن الصورة المفخمة للدال.

وأما الافتراض الثاني، وهو أن الضاد كان ينطق مثل الظاء، فرأي مرجوح، وقول مردود. ولا يشفع له أن الضاد ينطق ظاء في كثير من اللهجات المحكية المعاصرة في البلاد العربية. بل إن هذا القول مدفوع بما يلي:

---

(١) سيبويه.. **الكتاب ج٤** بتحقيق عبدالسلام هارون، ١٩٧٥، ص٤٣٦.

(٢) كمال بشر. **علم اللغة العام – الأصوات**، ص١٠٥.

١- أننا لا نجد عالماً واحداً يصف الضاد بأنه كأن ينطق ظاء. بل لم نجد عالماً واحداً يصف الظاء بأنه صوت ينطق جانبياً، كما كان حال الضاد، الذي وصفه علماء العرب جميعاً، بأنه ينطق من الجانب الأيمن، أو من الأيسر، أو منهما معاً.

٢- وصف العرب لغتهم بأنها لغة الضاد، ولم يصفوها بأنها لغة الظاء. وهو اعتراض نرد به، كذلك، على من يزعمون أن النطق القديم للضاد، هو نفس النطق المعاصر للضاد في العربية الفصيحة المعاصرة. فلو كان الضاد ينطق وقفياً على نحو ما ننطقه، معاشر المتخصصين، هذه الأيام، لما سمّى العرب لغتهم لغة الضاد. فالضاد الوقفي كان موجوداً في اللغة الحبشية، وكان العرب يعرفون ذلك، لأن جالية من الأحباش كانت تعيش في مكة، وكان بلال بن رباح، مؤذن الرسول ﷺ منهم. وإذن، فلا بد أن يكون نطق الضاد العربي مختلفاً عن نطق الضاد في الحبشية، حتى تسوغ تسمية العربية بأنها لغة الضاد. والنتيجة، أن تسمية العربية دون سائر الساميات، بلغة الضاد متسق مع الحقيقة، بشرط أن يكون الضاد كما وصفه سيبويه وغيره، لا كما ننطقه في فصيحتنا المعاصرة، إذ إن الصيغة النطقية الأخيرة موجودة في اللغة الحبشية Gazi. وتسمية العربية بأنها لغة الضاد، اتخذ بعداً اجتماعياً ونفسياً، فيه شيء من نظرة التميز والعلوّ.

ستة أصوات في العبرية القديمة تنطق وقفية شديدة، إذا لم تكن مسبوقة بحركة. وتنطق رخوة، إذا كانت مسبوقة بحركة. هذه الأصوات هي:

/ ב ، ג ، ד ، כ ، פ ، ת /

هذا في العبرية القديمة، أما في العبرية الحديثة، فاليهود الشرقيون، دون الغربيين، ما زالوا يحتفظون بالطريقتين السابقتين في النطق، في ثلاثة أصوات فقط من الستة السابقة وهي:

وهو خلاف قد يعزى إلى أسباب ثقافية، فالشرقيون من اليهود، أقل إقبالاً على التطور والتغيير من نظرائهم الغربيين. ولا بد أن أقرر هنا أن الإنسان الشرقي أقل قابلية للتطور من الإنسان الغربي، على نحو ما ذهب إليه بعض علماء الانثروبولوجيا ولكنني أذهب إلى القول، إن الإنسان الشرقي، أكثر محافظة على قيمه وتراثه من الإنسان الغربي.

يتبين مما سلف، أن ثمة ظواهر صوتية في اللغات السامية، يمكن أن تجد أجوبة مقنعة، إذا درست في أطر اجتماعية ونفسية وانثروبولوجية. ولست أدّعي أن كل ظاهرة صوتية يمكن أن تدرس أو تفسّر بهذه المعايير. ولكنني أقول إن فيها ما يدفع الدرس اللغوي المقارن بين اللغات السامية، دفعة قوية إلى الإمام.

٢- في الصرف

غني عن البيان أن درس المقارنات بين اللغات السامية، يؤدي إلى فهم أفضل لهذه اللغات، ومعرفة الصفحات المطوية من تاريخها. ولنأخذ مثالاً لذلك ما يسمى في علم اللغة المعاصر بالبنية التحتية underlying form. فالصرفيون العرب افترضوا أن الألف في الأفعال الثلاثية المعتلة والناقصة، منقلبة إما عن ياء وإما عن واو. فـ "قال" أصلها "قَوَل" و"رمى" أصلها "رمي"، بل ذهبوا إلى أن الفعل الثلاثي في مثل "ردّ" و"عد" و"جزّ" منقلب عن أصل، هو في هذه الأفعال "ردد" وعدد و"جزز".

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى ردّ افتراضات الصرفيين، بحجّة أن اللغة تدرس على ما هي عليه، لا في ضوء افتراضات ليس عليها دليل. ولو أن هؤلاء المعاصرين نظروا في اللغات السامية، قبل إصدار أحكامهم، لما أصدرها. ففي الحبشية نجد أنهم يستعملون الفعل، مشابهاً للصورة التي افترضها الصرفيون، ورفضها بعض المعاصرين، وذلك كما في الجدول التالي:

الكلمة الحبشية	نطقها بالعربية	كتابتها الصوتية	المعنى
	بَيَنَ	Bayana	تحقق
	تَلَوَ	Talawa	تلا
	دَيَنَ	Dayana	دان
	رَمَيَ	ramaya	رمى

وفي العبرية نجد نظيراً للفعل المضعف العربي، وقد فُكّ تضعيفه في العبرية، وذلك كما في الجدول التالي:

الكلمة العبرية	نطقها بالعربية	كتابتها الصوتية	المعنى
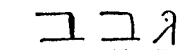	چاڤـــف	ga:vav	لمّ، جمع
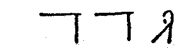	چـــاذذ	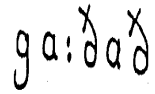	قطع، قصّ
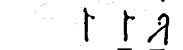	چـــازر	ga:zaz	قصّ

ليس غريباً أن يكون في اللغات السامية كلمات مشتركة، يتطابق لفظها بين لغتين أو أكثر، وقد يتطابق اللفظ والمعنى. وقد وجدنا علماء المقارنة بين الساميات يهتمون برصد الكلمات المتشابهة في اللغات السامية. غير أنهم لا يكادون يذهبون

إلى ما وراء ذلك؛ فقلما يتعرضون لدراسة تطور الألفاظ، وكيف تطورت دلالاتها من لغة سامية إلى أخرى؛ فكثيراً ما يحدث أن تدل الكلمة الواحدة في لغة سامية ما، على نقيض ما تدل عليه في لغة سامية أخرى، وذلك مثل الفعل "أبى" في العربية، والذي يقابله في العبرية "أفا"، الذي يعني شاء ورضي. وقد تستعمل الكلمة الواحدة للدلالة على المعنى وضده في اللغة الواحدة(١).

إن قوانين علم اللغة التاريخي، تفسر تطور الألفاظ ودلالاتها. وقد استخدمت هذه القوانين استخداماً جيداً في تفسير تطور اللغات الهندو أوروبية. ولم تستخدم هذه القوانين بكفاية، في تفسير تطور الكلمات ودلالاتها في اللغات السامية. وتتطوّر دلالات الكلمات في اللغة عادة ضيقاً واتساعاً. فإذا اتسع محتوى الكلمة ضاق مجالها وإذا ضاق محتواها اتسع مجالها(٢) وإنما يتسع محتوى الكلمة أو يضيق، تبعاً لعوامل انثروبولوجية اجتماعية، أو نفسية وثقافية. ونأخذ مثلاً لهذا النوع من التطور كلمة "نفس" في العربية، ونظيرها العبري والسرياني فهذه الكلمة تطلق في اللغات الثلاث، على النفس الحية، وعلى جسد الميت. وإنما كان الأمر كذلك لأن محتوى الكلمة أصلاً، كان يتضمن كل ذي جسد حي؛ ليكون مجالها الإنسان حياً. ثم ضاق محتوى الكلمة، ليصبح "كل ذي جسد حي" فاتسع مجالها وأصبح الجسد حياً وميتاً. وهذا مبين في التوزيع التالي:

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب د. ربحي كمال، **التضاد في ضوء اللغات السامية**، ١٩٧٥.

(٢) Thomas pyles **The Origins and Development of the English Language** 1971 p345.

الكلمة	المحتوى	المجال
نفس	كل ذي جسد حي (اتّسع)	الجسد الحي فقط (ضاق)
نفس	كل ذي جسد (ضاق)	الحي والميت (اتسع).

قلت إن الضيق والاتساع، قد يتمان بتأثير عوامل اجتماعية وثقافية ونفسية. وهو في هذا المثال واضح بين. فالعقلية السامية تكره الموت وتأباه. لكنها في المقابل، تؤمن به لعوامل ثقافية دينية. وإذن، فلا بد من إضفاء بعض الخصائص على الميت، مما يعطي للحي أصلاً. وكان أن أعطي لجسد الميت كلمة "نفس" وهي مما يعطى للحي.

إن معرفة الأساطير عند الأمم السامية الوثنية. ومعرفة القصص الديني في الأديان السماوية التوحيدية، تخدمنا في تفسير الأعلام في كثير من الأحيان. نأخذ لذلك مثلاً ظاهرة انتشار كلمة "عبد" وما تضاف إليه في العربية، على نحو أكثر مما نراه في سائر اللغات. وربما كان بعض الناس يتوقع وجود هذه الظاهرة في العبرية أكثر مما في العربية، فاليهود عاشوا عبيداً مذللين، في مصر، أيام الفراعنة. وقد استمرأوا العبودية، كما يروي تاريخهم. ولكننا لا نجد في أسمائهم عبدالحق، وعبدالرحمن، وعبدالناصر، وعبدالقوي، وعبدالله، وعبدالجبار. ولكننا نجد مثل ذلك في العربية، حتى في الجاهلية، حيث يشيع لفظ العبودية مضافاً إلى بعض أسماء الله عز وجل، بل إلى الأصنام وبعض الظواهر الطبيعية مثل عبد شمس، وعبد اللات، وعبد يغوث، وغير ذلك من نحوه. أقول نجد ذلك في لغة العرب الذين لم يعرفوا العبودية يوماً، ولا ذاقوا ويلاتها، بل عاشوا ذوي أنفة وعزة، على الرغم من شظف العيش، وقساوة الطبيعة. والذي أراه في تفسير هذه الظاهرة، هو أن العرب كانوا يربطون بين الرجولة والعبودية لمعبودهم، فأخذت الكلمة "عبد"

مجالها من الذيوع والانتشار في الأعلام، إلى أن رأينا ما رأيناه من شأنها في العربية.

تنعكس الطبيعة والبيئة العربية، على الأسماء والأعلام العربية، انعكاساً واضحاً جداً فالعرب يسمون أبناءهم كلباً. وجحشاً، وصخراً، وحجراً، وثعلباً، وأسداً، وعوفاً[1] وغير ذلك من نحوه وبابه.

وإذا ولينا وجهنا شطر الأعلام في العبرية، وجدنا ثمة العجب العجاب. فالمعتقدات الدينية هي سبب كثير من التسميات. فبابل مثلاً، دعيت بهذا الاسم لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض[2] وإبراهيم عليه السلام **يُغَيّرُ** اسمه من ابرام إلى "إبراهيم" بإضافة علامة الجمع اللاحقة (Plural marker) لأنه أصبح أبا لجمهور من الأمم "فلا يدعى اسمك بعدُ إبرام، بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم[3]. والملاحظ على الرغم من هذا النص الواضح في التوراة أن اليهود يتسمون بـ "افرام" و "أبراهام" ويرغبون عن الاسم الذي فيه إشادة بأبي الأنبياء عليه السلام، وما سبب ذلك في نظري، إلا أن اليهود يريدون أن يستأثروا بإبراهيم، استئثاراً ينفي نسبة غيرهم إليه. وهذا يدلنا بوضوح أيضاً، على أن اللغة تتحكم فيها المواقف النفسية والاجتماعية والثقافية.

وفي اللغات السامية جميعاً، كلمات انحدرت إليها من أصول سومرية أو كنعانية. نأخذ لذلك مثلاً من العربية، "شقائق النعمان" التي هي اسم لزهر برّي قان معروف في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وأصل هذه التسمية مأخوذ من

---

(1) العوف هو الطائر. ومن الأسماء العربية الشهيرة عبدالرحمن بن عوف الصحابي الجليل. وبهذه المناسبة، فإن كلمة "عوف" עוף في العبرية تعني "طائر" مثل العربية تماماً.

(2) العهد القديم، تكوين، ص١١.

(3) المرجع السابق، تكوين، ص١٧.

أسطورة سورية قديمة تدور حول مقتل "أدونيس" إله الزراعة والخصب عند السوريين آنئذ. وكان لـ "أدونيس" اسم آخر هو النعمان. ولما قتل أدونيس احمَرّ هذا النبت البري من دمه وسميت أزهاره "شقائق النعمان".

هذان وأصل "أدونيس" هو "آدون"، وإنما أضيفت إلى آخره السين من اللغة اليونانية حينما أصبح (هذا الإله). الكنعاني، معروفاً عند اليونانيين، وأصبح من آلهتهم.

وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن "تهامة" مأخوذ هو الآخر، من اسم الإلهة "تيامت" المعروفة في وثنية العراق، بكونها تهمين على الشطوط والسواحل ومصائد الأسماك[1].

٣- في النحو والتراكيب

أسلفت القول أن دراسة المجتمعات السامية، ومعتقداتها وكتبها الدينية، وثقافتها، ترفد الدراسة اللغوية المقارنة لهذه اللغات. وأضيف هنا، أن الدراسة اللغوية المقارنة يمكن أن توقفنا على فهم أشياء لم نكن لنجد لها بياناً شافياً. إن هذه المقارنات يمكن أن تدلنا على فهم أفضل لم ينتبه إليه أبناء اللغة وعلماؤها. ورد في قصة نوح في القرآن الكريم الآية التالية: "ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه"[2]. وقفت عند الواو الأولى في هذه الآية "ويصنع الفلك"، فما وجدت المفسرين يتحدثون عن هذه الواو بشيء، مع أن بعضهم أدرك أن الفعل المضارع "يصنع" يشير إلى الماضي ويتحدث عنه. فقد قال أبو حيان النحوي "ويصنع الفلك حكاية حال ماضيه[3]. وفي نظري أن الواو هي التي قلبت المضارع، فصرفت دلالته إلى الماضي. وهي لذلك صنو الواو العبرية التي تسبق

---

(١) حسن ظاظا. **الساميون ولغاتهم**، ١٩٧١، ص١٥.

(٢) سورة هود، ١١.

(٣) أبو حيان، **البحر المحيط ج٥**، ص٢٢١.

الفعل المضارع فتصرف دلالته إلى الماضي. فقد ورد في العهد القديم، عند الحديث عن قصة نوح أيضاً النص العبري التالي:

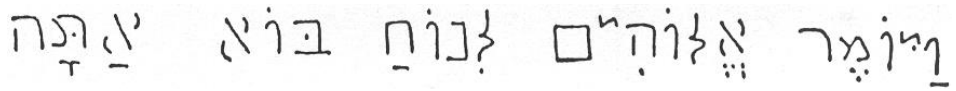

وترجمته الحرفية "ويقول الله لنوح ادخل أنت....." ولو أن النحاة العرب أفادوا من درس المقارنات، أو سلكوا سبيله، لأضافوا إلى رصيد الواوات في العربية هذه الواو.

بل إنني أذهب إلى أبعد من هذا، فأرى ظواهر لغوية كثيرة، في اللهجات المحكية في البلاد العربية، مما يمكن أن يفهم في ضوء المقارنات بين اللغات السامية. وأضرب لذلك مثلاً اللام التي تسبق المفعول به في كثير من اللهجات المحكية، فيقولون "أنا شفته لأحمد" يريدون "أنا رأيت أحمد" ويقولون "أنا ضربته لوليد" يريدون "أنا ضربت وليداً". وهذه اللام تسبق المفعول به في اللغة الحبشية، فيقولون مثلاً:

فاطركاها لَمْدر..، فتكون الترجمة الحرفية: خلقت للأرض، المراد: خلقت الأرض.

إن أهم مشكلة تجابه علماء العربية اليوم هي تفسير ظاهرة الإعراب. ولقد تعددت الآراء في هذه الظاهرة واختلفت، فإبراهيم أنيس مثلاً، يرى أن الأصل في كل كلمة سكون آخرها، وأن حركات الإعراب اخترعت للتخلص من التقاء الساكنين[1]. ويبرر إبراهيم أنيس ذلك بقوله إن اللغات السامية غير معربة، وكذلك

---

(1) إبراهيم أنيس. **من أسرار اللغة** ص ص٢٢٤-٢٥.

اللهجات العامية[1] . وذهب إبراهيم السامرائي إلى القول إن "العربية شفعية التعبير منذ أن كانت، فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته، وهي ملتزمة بضوابط الإعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط"[2].

إن الذي ذهب إليه إبراهيم أنيس، من أن الإعراب اخترع للتخلص من التقاء الساكنين، مردود بما يلي:

١- إن المعنى يتغير بتغير الحركات الإعرابية في مثل: ضرب محمدٌ خالداً، فلو قلت: ضرب محمداً خالدٌ لاختلف المعنى. وهذا دليل على أن للإعراب وظيفة أخرى أكثر من مجرد وصل الكلام.

٢- لقد أصبح مسلّماً به في الدراسات اللغوية المعاصرة أن للإعراب وظيفة دلالية. فاللغة السندية مثلاً، يرتبط فيها الإعراب inflection بالمعنى. وكذلك الأمر بالنسبة للغات السامية.

٣- أما الادعاء بأن اللغات السامية ليست معربة، فمردود بأن اللغة الحبشية لغة معربة، وكذلك اللغة الاكادية.

٤- أما تحلل اللهجات المحكية من الإعراب، فليس دليلاً على أنه استعمل لمجرد وصل الكلام، وإلا لكان لنا أن نسأل إبراهيم أنيس لماذا أتى العرب بهذه الحركات المتنوعة لوصل كلامهم؟ ألا تكفيهم الكسرة مثلاً لوصل كلامهم كما هي الحال في الفارسية؟

---

(١) المرجع السابق، ص ص١٩٩-٢٠٠.

(٢) إبراهيم السامرائي. **التطور اللغوي التاريخي**، ص٦٨.

المراجع

أولاً: المراجع العربية والمترجمة

١- الأبراشي، محمد عطية وآخران. **المفصل في قواعد اللغة السريانية.** القاهرة، ١٩٣٣.

٢- ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام**، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

٣- أبو حيان النحوي، **البحر المحيط**، بيروت، ١٩٧٨.

٤- أبو هلال، أحمد. **مقدمة إلى الأنثروبولوجيا التربوية**، عمان، ١٩٧٤.

٥- أنيس، إبراهيم، **من أسرار اللغة**، القاهرة، ١٩٧٥.

٦- بروكلمان، كارل. **فقه اللغات السامية**، جامعة الرياض، ١٩٧٧.

٧- بشر، كمال محمد. **علم اللغة العام**، الأصوات، ١٩٧٣ القاهرة.

٨- حجازي، محمود فهمي، **علم اللغة العربية**، الكويت، ١٩٧٣.

٩- سيبويه، **الكتاب** بتحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة، ١٩٧٥.

١٠- السامرائي، إبراهيم. **التطور اللغوي والتاريخي**، بيروت، ١٩٨١.

١١- سواح، فراس. **مغامرة العقل الأولى**، دمشق، ١٩٧٦.

١٢- ظاظا، حسن. **الساميون ولغاتهم**، القاهرة، ١٩٧١.

١٣- عبدالتواب، رمضان. **اللغة العبرية**، القاهرة، ١٩٧٧.

١٤- عبدالتواب، رمضان. **فصول في فقه العربية**، القاهرة، ١٩٧٧.

١٥- عبدالتواب، رمضان. **في قواعد الساميات**، القاهرة، ١٩٧١.

١٦- عبد الرؤوف، عوني. **قواعد اللغة العبرية**. القاهرة، ١٩٧١.

١٧- عبده، داود. **أبحاث في اللغة العربية**، بيروت، ١٩٧٣.

١٨- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. **العين**، بغداد، ١٩٦٧.

١٩- كمال، ربحي. **التضاد في ضوء اللغات السامية**، بيروت، ١٩٧٥.

٢٠- الهاشمي، أحمد. **جواهر البلاغة**، بيروت، بدون تاريخ.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1- Anttila, **R. Anintroduction to Historical and Comparative Linguistics. N .Y.** 1972.

2- Beeston, A.F. **A Descriptive Grammar of Epiqraphic South Arabian**, London, 1962.

3- Brame, M. **Arabic Phonology**. NonPublished Ph.D. dissertation, M.I.T. 1970.

4- Friedrich, P. **Language, Context, and the Imagination**. tanford, 1979.

5- Jeffers, R .& lise Lehiste. **Principles and Methods for Historical Linguistics**. M .It. 1980.

6- Lightfoot, F. **Principles of Diachronic Syntas**. Campridge Un. Press, 1979.

7- Pyles, Th . **The Origins and Development of The English Language. N .Y**. 1971.

8- **Shopen, T, Languages and Their Speakers**. Cambridge, 1979.